Sultan Qaboos University
Journal of Arts & Social Sciences

جامعة السلطان قابوس
مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

علاقة السّيرة الذّاتيّة بالكتابات المرجعيّة الأُخرى

فايزة بنت محمد بن حمدان الغيلانيّة

باحثة
جامعة السلطان قابوس
سلطنة عمان
faiza1927@gmail.com

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٠/٠٥/١٧
تاريخ القبول للنشر: ٢٠٢٠/٠٩/١٧

علاقة السّيرة الذّاتيّة بالكتابات المرجعيّة الأُخرى

فايزة بنت محمد بن حمدان الغيلانيّة

الملخص

السيرة الذاتية واحدة من أنواع الكتابات المرجعية التي تتطابق فيها الهويّات الثّلاث (المؤلّف، والرّاوي، والشّخصيّة) وتستند إلى الأحداث التاريخية والشخصيات الحقيقية، وتلزم كاتبها بالصدق في رسم الشخصيات، ونقل الواقع كما حدث دون تخيل، أو تزوير. وتتداخل السيرة الذّاتيّة مع أنواع الكتابات المرجعية مثل: المذكرات، واليوميات، والرسائل الشخصية في جوانب وتختلف عن بعضها في جوانب أُخَر؛ مما يدعو إلى دراسة هذه الكتابات، لتحديد نوعها وتعيينها. وتحديد جوانب الالتقاء والاختلاف بين هذه الأنواع، بما يحفظ لكل نوع سماته الفنيّة المميّزة.

الكلمات المفتاحية: السيرة - الذّاتيّة – المذكّرات – اليوميات – الرّحلات.

Relationship of the autobiography to other reference writings

Fayza Mohammed Hamdan Al Ghailaniya

Abstract

Biography is one of the types of reference writings that correspond to the three identities (author, narrator, and personality) and are based on historical events and real personalities, and obliges its author to be honest in drawing characters, and conveying the reality as it happened without imagination or forgery.

The personal biography overlaps with the types of reference writings such as notes, diary, and personal messages in aspects, and they differ from each other in other aspects, you need to study these writings, to determine their type and set it.

Keywords: Boigraphy - Subjectivity - Notes - diaries - trips.

المقدمة:

تمثل السّيرة الذّاتيّة نوعًا من أنواع الكتابات المرجعية التي تشتمل على أكثر من شكل من الأشكال الكتابيّة. وتستند الملفوظات السّرديّة المرجعيّة إلى متلفّظ واقعيّ ومعلوم الهويّة. وهي قائمةٌ على أساس التحقّق المرجعي. وتستند إلى وقائع تاريخيّة، وشخصيّات حقيقيّة. وهي تلزم كاتبها بتوخّي الصّحّة والدّقة، وتحرّي الأمانة في سرد الأحداث، ورسْم الشّخصيّات، ونقْل الواقع كما حدث دون تخييل، أو تزييف. فتتعلق بالحياة الحقيقيّة، وتنفتح على الواقع الذي يمكن مساءلته، والعودة إليه للتّحقق من مختلف الأحداث، والشّخصيّات التي تذكر في سياقه.

وتتداخل السّيرة الذّاتيّة مع غيرها من الكتابات المرجعية، وتقترب منها حد الالتباس؛ لأنّها تركّز في مجملها على الذّات الكاتبة، وما يدور لها من أحداث، وما تشهده من وقائع، غير أنّه لا يصح أن نسمّي كلّ عمل تتّضح فيه ذاتيّة صاحبه، أو نقرأ فيه شيئا من سيرته وواقعه، أو مشاهد من حياته أو فكره، وموقفه من النّاس والحياة (سيرة ذاتية) فالسّيرة الذّاتيّة تختصّ بجملةٍ من الأمور قد تلتقي فيها مع غيرها من كتابات الذّات الحميمة، أو تفترق عنها، ومن أهمها:

١. موضوعها الذّات الكاتبة نفسها. وتركز على ما يجري داخل الأنا من معانٍ وأفكار وتأمّلات.
٢. تروي الأحداث الشّخصيّة للذات الكاتبة.
٣. تشتمل على حياة الذّات الكاتبة من الطّفولة إلى المرحلة التي كتب عندها سيرته الذّاتيّة، أو ينتقي مرحلة من مراحل حياته زاخرة بالتّجارب لتدوينها وروايتها.
٤. تعتمد على الذّاكرة في تدوين الأحداث.
٥. تعيد ترتيب الماضي.
٦. التّطابق بين المؤلّف والسّارد والشّخصيّة.
٧. تعتمد السّيرة الذّاتيّة في معلوماتها على أنواع كتابات الذّات الأُخَر كالمذكّرات، واليوميّات، والرّسائل الشّخصيّة، وكتب الرحلات.
٨. الإسهاب والاسترسال في ذكر الأحداث والوقائع والحوارات وغيرها.
٩. مرجعيّة الأشخاص، والأماكن، والأحداث التّاريخيّة.

إشكالية الدّراسة وتساؤلاتها:

دراسة الواقع الأدبيّ للخطاب السّيرذاتي في الأدب العربي، وتعيين جوانب التّداخل بينه وبين الأنواع المرجعية الأُخَر، مثل المذكّرات واليوميات والرسائل الشخصيّة والرحلات، والجوانب التي تفترق فيها عنها، من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١- ما الجوانب التي تلتقي فيها السيرة الذاتية مع المذكرات، وما الجوانب التي تفرّق بينهما؟
٢- ما أنواع اليوميات الشائعة في الأدب العربي، وما جوانب التقائها مع السّيرة الذّاتيّة؟
٣- ما الجوانب التي تفترق فيها الرسائل الخاصة عن السّيرة الذّاتيّة؟
٤- ما الجوانب التي تلتقي فيها السيرة الذاتية مع كتب الرّحلات، وما الجوانب التي تفرّق بينهما؟

منهج الدّراسة:

لقد استعانت الدراسة بتحليل الخطاب، الذي لا يتوقف عند الحدود اللسانية للجملة أو الفقرة أو النص، بل يتجاوزها إلى المضمون والمحتوى، ثم إلى الخطاب انطلاقا من خصائصه الفنية المتمثلة في درجة الأدبية فيه. وهو ضرب من إطلاق حريّة النصّ، بهدف فك شفرته، ومعرفة كيفية استخدام اللغة ونوعها فيه، كما يهتم بتحليل السّياق، والسياقات المركّبة الأُخَر التي تستعين بمؤشراتها الخّاصة.

ولقد عادت نظريّا إلى الدراسات السرديّة في مختلف منابعها، مع الاستعانة بالدرس التّداولي الذي استفدنا منه في تداخل الذات المتكلّمة مع الراوي، وفي بيان المقامات العامة والخاصّة، مع المحافظة على دراسة البنيان الخاصّ بالسيرة الذاتية، للتعرف على ما ورائها من افتراضات أو ميول فكرية أو مفاهيم؛ للوقوف على الرسائل التي يود النّص السّيرذاتي أن يرسلها، ويضعها في سياقها التاريخي والاجتماعي، وهو يضمر في داخله أهدافًا مختلفة، وله مرجعية، ومصادر يشتق منها مواقفه وتوجهاته. فركّزت الدراسة على الجوانب الفنيّة في تحقّق خطاب السيرة الذاتية، والدرس المقامي الذي يفتح الخطاب على واقعين، واقع ذاتي يخص الذات المتكلّمة، وواقع خارجي، يخص الظروف العامة التي أسهمت في تنشئة معاني الخطاب.

١- السّيرة الذّاتيّة والمذكّرات:

المذكّرات «جنس من أجناس القصّ المرجعي الوقائعي». (القاضي، ٢٠١٠: ٣٨٠) يفترض فيها الصدق والدّقة، تشتمل على ميثاق مرجعيّ معلن فيها. «وظهر مصطلح المذكّرات في الفرنسيّة وغيرها من اللغات الأوروبيّة قبل مصطلح السّيرة الذّاتيّة.» (القاضي، ٢٠١٠: ٣٨٠) وهي «سرد كتابي لأحداث جرت خلال حياة المؤلّف. كان له فيها دور.»(جبّور، ١٩٨٤: ٦٩) وعرّفها المعجم المفصّل في الأدب أنّها: «نوع من العمل الأدبي الذّاتي، يكتبه المؤلّف عن حياته أو حياة شخصيّة فذّة ذات مقام بارز.» (يعقوب، وعاصي، ١٩٨٧: ٧٧٧).

ويكتب الأديب المذكّرات على تسلسل الأيام، أو الأحداث البارزة، أو الشّخصيّات المؤثّرة في زمنه فالتقسيم المتبّع في المذكّرات منوط بالكاتب نفسه لا يفرضه عليه أنموذج بعينه، ولا يشترطه نظام خاص تقوم عليه المذكّرات. وقد تقسّم المذكّرات تبعًا للأحداث البارزة التي تود الذّات الكاتبة تسليط الضوء عليها، مع مراعاة الترتيب الزّمني، أو دونه، جاعلة من الحدث بؤرة التركيز سواء اتصل بها أو لم يتصل، على نحو ما نجد في كتاب بدر عبد الملك (أبوظبي - ذاكرة مدينة) ففيها يوثّق جزءًا من تاريخه الشخصيّ ضمن تاريخ متداخل ومتفاعل مع تاريخ المدينة الفتيّة أبوظبي، في المدة الواقعة في (١٩٦٨ -١٩٧٠). (عبد الملك، ٢٠٠١: ٩) فاشتملت الذكريات على سرد يتناول أشخاصًا، وأماكن علقت في ذاكرته، أو بعض المواقف التي حدثت له على بساطتها.

وقــد تكون المذكّرات بأكملها قد أفردت لحدث واحد بما ضمّه من وقائع، ومشــاهدات مختلفــة على نحو ما نجــد في كتاب (الأيام الحمراء - مذكرات الشــيخ عبد الوهــاب النّجار عن ثورة ١٩١٩) وما ضمّته هذه المذكّرات من أحداث صاحبت ثورة ١٩١٩ في مصر، «فرصــدت تطــوّرات الثّــورة، وتفاصيل وقائعهــا، وأحداثها من جانب الشعب في القاهرة والأقاليم، ممَّا لم ينشر عادة في البلاغات الرسميّة أو التّقارير الإداريّة أو حتى الصحف المعاصرة.»(النّجّار، ٢٠١٠: ١٠) فالثــورة بتفاصيلها المختلفة هي الحدث الرئيس الذي دارت حوله تلك المذكّرات و«ســجل الشــيخ مذكراتــه يوما بيوم، فدوّن بها ما شــاهده، ومــا وصل إلى علمه من حــوادث الثّورة، وتطوّراتها وقت حدوثها. كمــا صوّر فيها تأثير الرأي العام، وما تقلّب فيه من آراء وأحــوال». (النّجّار، ٢٠١٠: ٩) فكانت الأحداث بورة التّركيز فيه، أكثر من الذّات الكاتبة.

وخلــص جورج ماي إلى أنَّ الحدود الفاصلة بين السّــيرة الذّاتيّة والمذكّــرات غائمة وزئبقيّــة. وأنّها تتقلّب كلّمــا أوغلنا البحث عنهــا. وأنّ تمييــز النّقّاد السّــيرة الذّاتيّة بمقاييــس ذاتيّة مثل النــبرة ونوعيّة الحضور وتمييز الصــوت، تمنع حصول إجماع بــين القرّاء، وتجعل الحدود بينهما هشّــة، وتلغي اســتقلالهما عــن بعضهما في الواقع. (ماي، مرجع ســبق ذكــره، ص١٩٤) ويرى عبد العزيــز شرف أنّ المذكّــرات (memoris) هي النّوع الوحيد الذي يصعب فصله عن السّــيرة الذّاتيّة. ويعلل هذا الأمر بقولــه: "فكاتب المذكّرات عادة هو شــخص لعب دورا مميّزا في التّاريخ، أو أتيحت له الفرصة لكي يشــاهد عن كثب التّاريخ في صنعه." (شرف، ١٩٩٢: ٣٨) ولا تقبل كتابة التّاريخ إلّا من عَلَم شُــهِدَ له بالثّقة، وعُرِفت معاصرته للأحــداث التي يوثّقها. وفي الوقت الذي تكشــف فيه المذكّرات، لا محالة، عن جانب كبير من أذواق وطبائع الذّات الكاتب، فإنّها تركز بؤرة الاهتمام أولًا على الأحداث الخارجيّة، وعلى أشــخاص آخرين، ومن ثمّ فإنّه ليست بالمعنى الدقيق شــكلا من أشكال السّــيرة الذّاتيّة، لكنّها تقترب إلى حد كبير منها، وكثيرا ما يقع الخلط بينهما؛ لاشــتراكهما في بعض الجوانب الشكليّة، وهي:

أ- الاتفاق بين الهويّات الثلاث (المؤلّف والراوي والشّخصيّة الرّئيسة):

كاتب المذكّرات حاضرٌ فيها مؤلفًا وراويًا وشــخصيّة. وقد تتضمّن بعض المذكّــرات جانبًا كبيرًا، وخاصًّا مــن حياته، ويتركّز الحديث حــول الأحداث التــي تتصل به دون غــيره، ســواء أكان فاعلًا في الأحداث المرويّة، أم شــاهدًا عليها. ومما يعزز هذا الخلط أنّ كاتب المذكّــرات لا يروي الأحداث العامة إلّا من زاوية شــخصيّة، فتبرز مواقفــه الذّاتيّــة، ورؤاه الفرديّة في خضمّ خطاباتــه الموضوعيّة، ومظاهرها، وقد مثّلت المذكّرات في البداية جنسًا جامعًا من الكتابة بدرجــات متفاوتة بين الــسّرد التّاريخي الوقائعــي، وسرد الحياة الذّاتيّة لكاتبها، ويــرى ماي أنّه «ليندر أن ألّا يقحم كاتب المذكّرات نفســه من حين إلى آخر فيما يكتب، وبذلــك يغدو، دون قصد منه أحيانًا، مؤلف سيرة ذاتيّة.»(ماي، ٢٠١٧: ١٩١) يركّز الاهتمام نحو ذاتــه، متحدّثا عن تجاربها في المكان، وأفكارها، ومشــاعرها تجاه الموجودات والأشــخاص، مبعدًا التّركيز عمَّن سواها؛ لتكون الذّات وحدها الرّاوي والموضوع، «وكذلك الشأن بالنسبة إلى مؤلف السّيرة الذّاتيّــة، إذ يندر ألّا تطفو على ســطح ذاكرته الأحداث العامّة التي كان عاشــها، بحيث يضطلع أحيانًا في ما يكتــب بدور المدوّن لتلك الأحداث، وإن لم يكن ذلك منه تعمّدا.» (ماي، ٢٠١٧: ١٩١) فيجنح إلى إثبــات الأحداث البارزة، والمؤثرة في عــصره وتأثيراتها المباشرة وغــير المباشرة عليه، وعلى النّاس مــن حوله. وتمثّل هذه الأحداث في الكثــير من الأحيان مدخلًا للحديث عن مراحــل الذّات الحياتيّة، وتقلّباتها النّفسيّة، وتصاعد حركة الذّات وفاعليّتها فيها.

ب- نوعيّة المؤلّفين:

تكتب المذكّرات من قبل شــخصيّات عاصرت أحداثًا تاريخيّة بارزة كالعلماء، والسّياســيين، والفنانين، والمناضلين وغيرهم، غير أنّها لم تعد وقفًا على أرباب العلم والمعرفة، أو الشّــخصيّات الفذّة التي تتفــوّق في المواهب، والعلاقــات، والأثر، والأفــق الذهني الخارق للمألوف؛ فقد تكتب أيضا من شرائح أُخَر من المجتمع ممن أرادوا توثيــق معاصرتهــم للأحداث المختلفة ســواء كانت ممــا أرّخ له التّاريخ، أو أهمله، أو كانت من قبيل العادي المعتاد في حياة البشر. فالكتابة فعل توثيقيٌّ لوقائع اجتماعيّة ومعرفية متصارعة داخل إطار وعي الذّات بحركة الوجود الذي يشــكل العالم الخارجي من حولها، وتفاعلاتها مع أحداث عصرها ومنجزاته. ورغم التّقارب الشّديد بين المذكّرات والسّيرة الذّاتيّة؛ إلّا أنّه يمكن تعيين جملة من الجوانب التي تفرق بينهما، هي:

١- تركّز المذكّرات على الآخر دون الأنا:

يطغــى الآخر في المذكّرات، وتنحسر الذّات فــلا تظهر إلّا لتقديمه، وتســليط الضوء عليه، وإحلاله موقعًا متقدّمًا في التّعريف به، أو الرواية عنه، بينما تقبع الذّات بعيدًا، ولا تظهر إلّا بوصفها ساردًا للحــدث، منفصلًا عن الشّــخصيّة المسرود عنهــا. ويمكن الركون لهــذا الفرق كحدّ واضح وجوهري بــين المذكّرات التي تدوّن فيها الذّات معرفتها بالآخر شــخصًا، أو حدثًا، أو مكانًا، أو ظاهرة ما، والسّيرة الذّاتيّة التي تتمحور حول الذّات، ويعلو فيها صوت الأنا، وترســم ذاتها، فهي الكاتــب، وهي موضوع الكتــاب، ولا يظهر الآخر إلّا بقدر ما تتيحه لها الذّات الكاتبة لغايات السّرد والرواية. فيتحد الرّاوي والشّــخصيّة والمؤلّف، ليروي الحدث. ويذكر المكان. وتظهر الشّــخصيّات وتختفي تبعًا لرغبــة الذّات في بيان وضعها، وانفعالاتها، ومشــاعرها في علاقتها بها، أو بمن حولها. وتتحقّق لهــا الســيادة في النّصّ، فلا نجد الآخر إلّا من جهــة اتصاله بالأنا المتكلمة، وموقفها منه.

٢- تركز المذكّرات على تدوين الأحداث، دون الحياة الشّخصيّة للكاتب:

تولي المذكّرات «اهتماما للأحداث حول الكاتب وخارجه أكثر مما تولي للكاتب نفسه...ومن المذكّرات نعرف قدرا كبيرا عن المجتمع الذي يدور حوله موضوع المذكّرات، وقليلا عن الكاتب نفسه.»(شرف، ١٩٩٢: ٤٤) ويهتم كاتب المذكّرات بتقديم مشاهد مختلفة، قد تكون مترابطة أو غير مترابطة عن المجتمع الذي يعيش فيه، أو الأحداث التي تدور من حوله، أو الشّخصيّات التّاريخيّة أو العاديّة التي يختلط بها، أو تؤثر فيه. «ولا تتطلع المذكّرات إلى سبر الذّات، ولا تقصر اهتمامها على الأنا الخاصة، بل تصرف اهتمامها غالبا نحو القيم المعنوية أو الأدبيّة أو السياسيّة.»(زيتوني، ٢٠٠٢: ١٤٦) فلا تركّز الذّات الكاتبة على نفسها، بل يتجه التبئير بصورة أكبر إلى غيرها من الموضوعات، فتحظى الحوادث المعاصرة والتّاريخ بأهميّة أكبر مما تحظى به. وتهدف إلى التّعريف بما كان مجهولا من الأحداث والوقائع، وتقديم الشهادة عليها، أو لإبراز الدروس والعِبر المستفادة منها، أو دحض أقوال متعلقة بهذه الأحداث، ونفي بعضها. ويمكن أن يكون الهدف هو الرغبة في تلميع الذّات، وتقوية موقفها، أو تشويه صورة الآخرين لأغراض مختلفة؛ لذا فإنَّ بعض المذكّرات تبقى طيّ الأدراج حتى وفاة أصحابها، أو وفاة الشّخصيّات الفاعلة المذكورة فيها؛ لأنّ نشرها يمكن أن يؤدي إلى إشكالات اجتماعيّة أو قانونيّة تلحق الضّرر بكاتبها، أو من يتصلون به من أقارب وأصدقاء وغيرهم. وتكتب المذكّرات - غالبًا - في مرحلة متأخرة من العمر. ولا تكون بالضرورة تأملًا هادئًا لمدة ساكنة منقضية من العمر، بل يمكن أن تكون مشاركة مبنيّة على توتر جديد، أو معطيات مستجدة تحفّز الذّات الكاتبة على تدوين شهادتها.

وتمثّل الذّات موضوع السّيرة الذّاتيّة الأبرز، وما اتّصالها بالأحداث العامّة إلّا من جهة التّأثير والتأثّر التي تطالها منها، فالاستقلاليّة والسّيادة في السّيرة الذّاتيّة للذّات دون غيرها.

٣- تعتمد على الوقائع التّاريخيّة:

تهتم المذكّرات بالتّاريخ الذي يعيش فيه كاتبها. فهي «تخصّ العصر وشؤونه بعناية كبرى، فتشير إلى جميع الأحداث التّاريخيّة التي اشترك فيها المؤلّف، أو شهدها، أو سمع عنها من معاصريه، وأثّرت في مجرى حياته.»(جبّور، ١٩٨٤: ٦٩) وتركّز المذكّرات الاهتمام على الأحداث، أو الشّخصيّات الأُخَر، مدرجة أهم أعمالها، ودورها في مسار الأحداث التي تقوم بتسجيلها. وتمتاز الوقائع المدوّنة بأثرها في التّاريخ، مما يؤهلها للتّسجيل والتّدوين. بينما تولي السّيرة الذّاتيّة الأهميّة لتاريخ شخصيّة كاتبها، والقصص والذكريات التي تتعلّق بحياته الخاصّة. وتحتفظ بالمعلومات التي تؤرخ أحداث حياته الكبرى، كالميلاد، والالتحاق بالدراسة، أو العمل، أو الترقية في المناصب المختلفة، أو تواريخ الوفاة لشخصيّات عزيزة وقريبة منه، فلا تتضح أهميّة التّاريخ إلّا بتأثيره الوجداني الذي تختزنه الذّات، وبأثره العاطفي الذي ارتبط به.

٤- تباين المذكّرات في الموضوع:

الموضوع الأساسي في المذكّرات هي الأحداث والوقائع، وتتباين في موضوعاتها، فبعضها سياسي، أو اقتصادي، أو تعليمي، أو ثقافي، أو أدبي. وظهرت في العالم العربيّ مذكرات عديدة وفق هذه التقسيمات منها: المذكّرات السياسيّة مثل: مذكّرات حسين راشد الصبّاغ أول سفير بحريني في إيران بعنوان «في بازار الآيات كانت لنا أيام» يوميّات سفير بحريني في إيران، وهي مذكّرات عن أحداث إيرانيّة سياسيّة وأمنيّة بارزة. بينما تمثّل «قصة حياة الذّات» الموضوع الأوحد في السّيرة الذّاتيّة، والنموذج فيها هي حياة المؤلّف، كما كانت بالفعل في فتراتها السنيّة جميعها، أو في بعضها، أو في مرحلة من مراحل حياتها العمليّة، أو تعرّضها للنفي أو السجن أو غيره من الأحداث التي تعدّ حدثا فاصلا في حياة الإنسان.

ويمكن أن تشترك السّيرة الذّاتيّة مع المذكّرات في اقتصارها على أحداث فترة قصيرة من حياة كاتبها، يضمّنها ما في داخله من انطباعات عن الأحداث التي يعاصرها، لا يُقرأ في خضمّها شيء إلّا حديث الذّات عن نفسها، وانطباعاتها عن المشاهد التي تموج من حولها، دون أن ينتقل التبئير منها إلى غيرها، كما في «مذكراتي في سجن النساء» لنوال سعداوي (انظر/ سعداوي،٢٠٠٠) التي لا نعدّها من قبيل المذاكّرات رغم التّسمية التي تتصدّرها، بل هي سيرة جزئيّةٌ لمرحلة حياتيّة عاشتها الذّات.

إنّ الحدّ الفاصل بين السّيرة الذّاتيّة والمذكّرات، يتمثّل في درجة اتجاه الموضوع نحو الذّات نفسها، وظروفها الخارجيّة، ومعاناتها والتّحديّات التي تجابهها، وخلجات دواخلها، وأفكارها، وأحوالها النّفسيّة التي تجعل منها سيرة ذاتيّة، أو احتفائها بالآخر من وجهة نظر شخصيّة دون أن تكون هي نفسها الموضوع المطروق، مما يجعلها تنتمي لنوع المذكّرات. فاكتمال السّيرة الذّاتيّة، وتلقيها على نحو واسع من القرّاء متوقّفان على صوغها في بناء فنيّ محكم، يربط بين الذّات، وصوتها القصيّ في الأعماق، وانعكاسه على الأحداث الخارجيّة وتفاعلها معها، وإلّا كانت في حال اقتصارها على سرد الأحداث، وتوثيق التّاريخ، وتسجيل الوقائع عملا أقرب للمذكرات، أو اليوميّات، أو التدوين التّاريخي.

٥- اعتماد السّيرة الذّاتيّة على المذكّرات:

تعتمد السّيرة الذّاتيّة بوصفها «قصّة يحدّث فيها المرء عن حياته في أخصّ مظاهرها»(ماي، ٢٠١٧: ١٣٨) في كثير من تفاصيلها على المذكّرات التي تدوّنها الذّات الكاتبة بين حين وآخر. فالسّيرة أعمّ وأشمل في استيعابها لمسيرة الحياة الكليّة، أو المرحليّة من المذكّرات التي تركّز على الأحداث الخارجيّة، ومن ثمّ فإنّها تمثّل جزءًا من السّيرة الذّاتيّة، عندما يقحم كاتب المذكّرات ذاته في خضم سياقات الحوادث المعاصرة التي تعرض له، ويدوّن أثرها وتأثيرها على مسيرة حياته، أو دورها في تكوين قناعاته وإصدار أحكامه المختلفة، أو عندما يعود إليها لتذكّر المواقف المختلفة، واستحضار ردة الفعل عليها؛ ليربط بين الأحداث، ويعيد ترتيب السّيرة على

نحو متّسق في زمانه، ومنطقيّ في توالي أحداثه، وسلس في انتقاله بين المراحل المختلفة التي تمرّ بها الذّات.

وهذا الأمر هو ما دعا إلى استخدام كلمة السّيرة الذّاتيّة، وإطلاقها على المذكّرات التي تتعلّق بالرجال أنفسهم أكثر ممَّا تتعلق بالحوادث التي لهم ضلع فيها. (ماي، ٢٠١٧: ١٨١) أمّا «في التواليف التي كانت تحظى فيها الحوادث المعاصرة والتّاريخ بأهميّة أكبر عن شخصيّة المؤلّف، كانت كلمة المذكّرات أليق بها من عنوان السّيرة الذّاتيّة». (ماي، ٢٠١٧: ١٨١) وأسهمت في إنجاز السّير الذّاتيّة المختلفة، لاشتمالها على العديد من المعلومات التي تستند إليها الذّات الكاتبة في لملة خيوط حياتها التي يطال الكثير منها النسيان. إنّ كتابة الذّات أحداث حياتها، والتّاريخ المحيط بها يأتي ضمن ثلاثة أنماط، ذكرها ماي. وجرى الناس في زمانه على أن يطلقوا اسم «المذكّرات» على النمطين الأولين، واسم «السّيرة الذّاتيّة» على النمط الثالث. وهي:(ماي، ٢٠١٧: ١٨٧- ١٨٨) إخبار المرء عمّا شاهد، أو سمع. وإخباره عمّا أتى أو قال وإخباره عن الأحوال التي كان عليها. وأقرّ ماي أنّ هذا التقسيم ينطوي على التّضليل، حين تتدخّل الذّات في النّمطين الأولين، ولا تكتفي بدور الملاحظ المحايد. (ماي، ٢٠١٧: ١٨٨) وهو رأي نتفق معه، إذ يؤدي اعتماد التّفرقة بين المذكّرات والسّيرة الذّاتيّة وفق هذه الأنماط إلى القبول بالآثار المكتوبة منها دون الانتباه إلى طبيعة تلك الآثار، وعلّو صوت الأنا فيها من عدمه.

فهناك فرق بين «الآثار التي مدارها على الأحداث التي يرويها المؤلّف.» (ماي، ٢٠١٧: ١٨٦) وهي المذكّرات التي تكون الأحداث العامّة موضوعها الأساسي، وتعليقات الذّات الكاتبة عليها لأهميّتها، وما ترتّب عليها من أحداث. وبين «الآثار التي مدارها على شخص المؤلف أو شخصيّته.» (ماي، ٢٠١٧: ١٨٦) وهي السّيرة الذّاتيّة التي لا تحفل سوى بالذّات الكاتبة، فحين يشعر المرء بذاته، يتخذ ما يجاورها من أحداث وشخصيّات وأماكن، وسائل ومعينات على السّرد حتى يعبّر عنها.

٢- السّيرة الذّاتيّة واليوميات:

اليوميّات الخاصة «سجل للتّجربة اليوميّة، والحفاظ على عمليّة حياة المرء بالذّات، دون نظر إلى التّطوّر الذي يحاكي نموذجا معيّنًا، أو التّواصل القصصي، أو الحركة الدّراميّة نحو ذروة ما». (شرف، ١٩٩٢: ٤٤) فالغاية منها تسجيل ما تمرّ به الذّات في سيرها اليومي، من أحداث، وأفكار، ومشاعر تجاه الوقائع المختلفة التي تمر بها.

ويتعهد مؤلفها أن يكتب يوما بيوم، ما يقع له من أحداث، قريبة منه في الزّمن قربا يتماس معه الزّمن المستذكر، وزمن التّعليق، فلا يفصل بينهما عادة إلّا مدى زمني ضيّق لا يتعدى الساعات. (القاضي، ٢٠١٠: ٤٨٢) وتمثّل انتظامًا يوميًّا في تدوين الأحداث التي تمر بها الذّات، سواء أكانت بارزة أم عادية على نحو إلزامي مع العناية بالتّاريخ الزّمني لها، ويتعامل بعض كتّاب اليوميّات على أنّها شخصيّة خاصّة غير قابلة للنّشر، بينما هي لدى بعضهم الآخر آثار أدبيّة كتبت للنشر، والعرض على الجمهور.

وقد عدّ بعض النّقاد اليوميات «مجرد جنس بسيط، أنثوي وطفولي». وأنّها فن مَن ليسوا فنانين، غير أنّ الآثار المدرجة لهذا النّوع، أعادت النّظر إليها عندما درج مؤلفون ضالعون على الكتابة فيها، تقول (بياتريس ديديه): «إنّ اليوميّات لم تعتبر جنسًا أدبيًّا إلّا حينما اطّلع بها على النّاس مؤلفون كبار، من قبيل «أندريه جيد» قبل أن توافيهم المنيّة.»(ماي، ٢٠١٧: ٢٢١) ومن مقوّماتها:

١. كتابة التّاريخ مفصّلاً باليوم والشّهر والسّنة، وتوثيق السّاعة والدّقيقة التي دوّن فيها الحدث، وتسجّل بعضها على نحو منتظم يوميًّا، بينما يأتي بعضها الآخر متجاوزا لبعض الأيّام، وقد يكون التّوثيق موضّحًا في عنوان اليوميّات، بينما تكون مرقّمة في الدّاخل بتوالي الأيام (اليوم الأول -اليوم الثاني ...)، وصولا إلى اليوم الأخير.
٢. الاقتصاد في تدوين الحدث، وعدم الإسهاب في ذكر التّفاصيل.
٣. خلّوها من التّخييل. فاليوميّات تتعلّق بما هو حقيقي، وما مرّت به الذّات من أحداث وتجارب، ولا مجال فيها للخيال الذي يعوّض ثغرات الذّاكرة؛ لأنّها تعتمد على التّسجيل المباشر.
٤. اعتمادها على ضمير المتكلم المفرد، ولا تلجأ للرواية بضمير المتكلّم الجمعي أو ضمير الغائب.

وتتعدد أنواع اليوميّات، وفقا لطبيعة موضوعاتها، وهي:

- اليوميّات التوثيقيّة: وهي أشبه بما يعرف بـــ «حدث في مثل هذا اليوم» وتعنى بتسجيل الأحداث والمواقف تسجيلًا توثيقيًّا غير مرتبط بإضافة التّعليقات التي تكشف خفايا الذّات، ومواقفها الحقيقيّة، إذ يرى بعض الكتّاب أنّ ضمير المتكلّم المفرد فيها «يتجاوز تسجيل الوقائع الشّخصيّة، والانطباعات الذّاتيّة، فيراقب المشهد الخارجي العريض، ويسجّل حركة المجتمع والتّاريخ، بعين أحاديّة الإدراك بالطبع.»(كنفاني، ٢٠١٨: ١١) وهو نمط شائع من كتابة اليوميات في الأدب العربي. فتنتقي الذّات أحداثا تستشعر تأثيرها عليها أو على الآخرين. وقد تقتصر على إشارات سريعة إلى الأحداث، والمواقف غير متبوعة بتعليقاتٍ مًّا، أو ملاحظات شخصيّة قصيرة، وتتحدد أهمية هذه الأحداث وفق رؤية الذّات، فيمكن أن يكون حصول الذّات على هدية حدثًا ذا أهمية على المستوى الشخصي، ويمكن أنْ يكون موت كبير الأسرة حدثًا يكتسب أهمية على المستوى الأسري، أو غيرها من الأحداث على المستوى المحلّي، أو المستوى العالمي، وفقا لمعيار الأهمية الذي تتبناه الذّات. فحصول ممثل على جائزة الأوسكار حدثٌ يستحقّ التوثيق، بينما تتجاهل فوز عالم بجائزة نوبل؛ لأنّه لا يمثل لها أهميّة تذكر، ويمكن أن تشتمل هذه اليوميّات على أحداث تاريخيّةٍ بارزة، يستفيد منها المؤرخ وكاتب التّاريخ، وتعدُّ لدى بعض المدارس التّاريخيّة مصدرًا للتأريخ.
- اليوميّات التوثيقيّة الانطباعيّة: تتخذ من الآخر -سواء أكان شخصًا، أم موقفًا، أم مكانًا - موضوعا محوريًّا، تتعلّق به انطباعات الذّات. فيصبح تدوين الحدث مناسبة للذّات الكاتبة للكتابة، والتعليق، وإبداء الرأي حوله، ويمكن أن تربط الذّات الكاتبة بين الحدث، والحالة النّفسيّة التي تكون عليها، أو

يكون سببًا في الإحساس بها، على نحو ما نجد في يوميّات غسان كنفاني التي ارتبط بعضها بحدثٍ مَّا، كموت ألبير كامو. ففي يوميته المؤرخ لها بتاريخ ١٠/ ١/ ١٩٦٠ يقول: «أمس توفي الفيلسوف الوجودي ألبير كامو...صاحب فلسفة العبث، مات في موقف عبث، وأي رثاء له نوع من العبث ليس غير. لقد انتهى وعليه أن يقنع بحياة عاشها عريضة، وإن لم يستطع أن يجعلها طويلة.»(كنفاني، ٢٠١٨: ٣٢) فالانطباع المكتوب لا يفسّر الحدث، بل يتعلّق بوضع الذّات الفكري، والنّفسي في لحظة التّدوين. ويمكن أن نجد له تفسيرًا، أو نعجز عن هذا.

- يوميّات الأنا: تطغى فيها الأنا، وتتخذ دور الشّخصيّة الرّئيسة، وتتصف بالتّدفّق المتسارع للأفكار، والتّدوين الانفعالي، والطّلاقة النّفسيّة، والانعتاق من التّرتيب والمراجعة والرّقابة الذّاتيّة، والتّخوّف والتّحفّظ؛ لأنّ الذّات تبثّ فيها أفكارها، ورغباتها، وتطلّعاتها، وأحاديث نفسها دون أن ترتبط بحدثٍ مَّا، أو مناسبةٍ خاصة، وهي أشبه ما تكون بالخواطر التي يكتبها المرء ترجمة لأحوال داخله، أو أفكاره عن الحياة والوجود، والمعاني القيميّة المختلفة، وبعضها يتعلّق بأفكار خاصّة كالتّفكير في كتابة قصّة، على نحو ما يقول كنفاني في يوميته المؤرخة بتاريخ ١٥/١/١٩٦٩: «أفكّر في كتابة قصّتين، الأولى قصّة إنسان مخذول، خذلته القيمة التي اعتقد أنّها مقياس الحياة الوحيد، وإذا هي قيم لا تعتبر في عالم الحضارة المعاصر. إنّني لم أتوصل بعد إلى اصطياد الحادثة الملائمة، ولكنّني أحتاج أنْ أصل منها إلى التّعبير عن الانخذال الكامل الذي يحسه إنسان صفع بشيء آمن به، فإذا به عند الآخرين لا يساوي شيئًا.» (كنفاني، ٢٠١٨: ٣٣).

وقد تشتمل أيضًا على كتابات فكريّة، وآراء نقديّة، ومحاورات نفسيّة من الذّات لنفسها، فلربّما كانت على نحو ما يقول الروائي والشاعر والقاص الإيطالي (تشيزاري بافيزي) صاحب كتاب (مهنة العيش يوميات ١٩٣٥-١٩٥٠): «قد تكون فائدة هذه اليوميات في الوفرة غير المتوقعة من الأفكار، في فترات الإلهام التي من تلقاء نفسها، وبطريقة ميكانيكيّة تعلن عن الاتجاهات الرئيسية لحياتك الرّوحيّة، من وقت لآخر تحاول أن تفهم ما تفكّر به، وبعد فوات الأوان فقط تسعى إلى اكتشاف رابط بين أفكارك الحاليّة وتلك الماضية. أصالة هذه الصفحات هي أنّك تترك البنية تستنبط نفسها، وتضع روحك أمامك على نحو موضوعي. ثمَّة شيءٌ ميتافيزيقيّ في إيمانك أنّ هذا التّعاقب السيكولوجي لأفكارك، سوف يصيغ نفسه في عمل حسن البنيان.»(بافيزي، ٢٠١٦: ٢٥٣، ٢٥٤) فاليوميّات فضاء خاص، يرصد حديث النّفس. ويمكن مراكمته على نحو يؤدي إلى فهم شخصيّة الذّات، وتقلباتها المزاجيّة، وأحوالها النّفسيّة المختلفة في مدد زمنيّة معلومة من حياتها.

- اليوميات السّيريّة: اليوميّات مادة مرجعيّة خصبة وثريّة لمعرفة الذّات، وما أحاط بها من ظروف. تسجل سيرة المرء خلال اليوم. وقد تشمل العادي والبارز من الأحداث، وكأنّها تصوير سينمائي لأحداث حياته خلال يوم بتفاصيله المختلفة. يبدأ فيها الكاتب تسجيل مسار حياته في اليوم، مرورًا بالأحداث التي مرّت عليه، وصولًا إلى نهاية يومه، في سرد يعتني بتصوير الحياة اليوميّة. ويعين على رسم مسارها الروتيني. وقد يشمل هذا النّوع الأنواع الثلاثة السابقة. فيسجل الحياة اليومية بتفاصيلها. ويترجم الأفكار والأحاسيس الخاصة. ويدوّن الأحداث ويعّلق عليها، فهي أشبه بالسّيرة الذّاتيّة في تتبعها للتّفاصيل المختلفة.

ويعدّ جورج ماي (Georges May) السّيرة الذّاتيّة أعرق من اليوميات، ويطرح أسئلته حول الجوانب التي تجمع بينهما، ويراجع مقياس المدّة الزّمنيّة الذي يكون مداره على الماضي القريب في اليوميّات، وعلى الماضي البعيد في السّيرة الذّاتيّة، ويجعل منه رابطا بينهما لا فرقا بينهما، فيقول: "إنّ مقياس المدة الزّمنيّة وحدَه لا يتيح لنا ضبط الحدّ الفاصل بين السّيرة الذّاتيّة واليوميّات الخاصة، وإنّما هو يبرز ما يجمع بينهما، أعني التأمّل في الماضي."(ماي، ٢٠١٧: ٢٢٤) وأنّ الكتابة في كلا النّوعين تسير من الحاضر إلى الماضي، حتى وإن كان هذا الماضي قبل ساعات قليلة كما هو في اليوميّات، ويمكن زيادة جوانب أخرى تجمع بينهما على هذين الجانبين، هي:

- الرّواية باستخدام ضمير المتكلم، وإن كانت السّيرة الذّاتيّة أقدر على التّنويع في استخدام الضّمائر المختلفة، تبعًا للتّبئير الذي يهدف إليه السّارد فيها.
- التّحليل الطّبقي والسياسي والاجتماعي والسوسيولوجي: فكلا النّوعين يقدم أحكام الذّات الكاتبة عن المحيط الذي تتعامل معه، وتفصح عن انطباعاتها المختلفة في القضايا التي تعرض لها، وتلتقي المذكّرات معهما في الأمر نفسه عندما ترتبط بالآخر.

وحاول أن يفرّق بينهما في عدد من الجوانب، فعرض بينهما فروقًا ثلاثة في التّسمية والموضوع والمدّة الزّمنيّة التي يعالجها كل نوع منهما. فمن حيث التّسمية يقول: «كلمة يوم (Jour) (الموجودة في اسم اليوميات أو الجورنال) تختلف عن كلمة "حياة" (Bio) الموجودة في (اسم السّيرة الذّاتيّة أو الأنوبيوجرافي)، ومن ثمّ فإنّ اليوميّات، وهي مشتقة من يوم، تكتب يوميًّا بانتظام، ولا يدوّن فيها صاحبها في كلّ مرّة إلّا ما وقع له في الفترة القصيرة التي تفصله عن التّدوين السابق. أمّا السّيرة الذّاتيّة، أو إن شئنا المذكّرات السّيرذاتيّة، فإنّها تشتمل على حياة المرء في مجموعها، ومن ثمّ فإنّها تُكْتَب بعد أن يكون قد انقضى من تلك الحياة شطرٌ كبيرٌ."(ماي، ٢٠١٧: ٢٢٢) فعماد اليوميّات على ما جرى في اليوم والليلة، أمّا السّيرة الذّاتيّة فهي قصّة الحياة المنتقاة مدّتها، وزمانها.

إن موضوع السّيرة الذّاتيّة هو قصة حياة الإنسان جميعها أو جزء منها، تقوم على استثمار الماضي، أو توظيفه. وهي حَكْيٌ للحياة الخاصّة أو الحياة الداخليّة لا تتعلّق بما عداه إلّا بقدر ما تتيحه الذّات للآخر حتى يظهر في حضورها لغاية من الغايات، «وكتابة

المرء قصّة حياته يعني أنّه وهب حياته شكلًا، ومن ثمّ فإنّ السّيرة الذّاتيّة تمتاز من اليوميّات الخاصّة امتيازًا جوهريًّا، وتختلف عنها شديد الاختلاف من حيث الحاجة الدّاعية إليها.» (ماي، ٢٠١٧: ص٩٦)

وهي تختلف عن اليوميّات التي تعتمد الحاضر موضوعًا لها، فتدوّن الأحداث الحاليّة، ولا فرق فيها بين الخاصّ المتعلّق بالذّات، أو العام المتعلق بالآخر، فما يشدّ الذّات الكاتبة من الأحداث هو المحرّك لتسجيلها، ولئن قلنا أنّ كتابات الذّات جميعها قائمة على إحلال الأنا موضع الصدارة، فإنها في السّيرة الذّاتيّة أكثر التزامًا بتحقيق هذا الأمر عنها في اليوميات، فالأنا في السّيرة الذّاتيّة هي المؤلّف والراوي والشّخصيّة الرّئيسة، ولكنّها في اليوميات تحتفظ بأدوار المؤلّف والرّاوي، ويمكن أن تفسح المجال لأبطال غيرها سواء أكانت أحداثًا أم أشخاصًا أم أماكن.

ويرى ماي أنّ المدّة الفاصلة بين التّجربة وزمن تدوينها تكون أكبر في السّيرة الذّاتيّة عن اليوميات، فالذّات الكاتبة لا تحتفظ من أحداث حياتها وتجاربها، إلّا على تلك التي تدخل ضمن بناء نموذج معيّن، فالسّيرة الذّاتيّة يمكن أن يداخلها الخطأ أو التّغيير في الأحداث والمسمّيات، وإن كانت على وجه آخر، تمكّن كاتبها من تصوير الأحداث على نحو متماسك، في إطار بنية قصصيّة واضحة، فتأخّر زمن السّرد عن زمن الحكاية يمكّن الكاتب من ترتيب وقائعها، وروايتها على نحو هادئ، ومُوحٍ بالأهميّة لكل حدث من الأحداث فيها، ويتمّ تقديمها على نحوٍ تصاعدي من مرحلة الطّفولة مرورًا بالشباب ثم الشيخوخة، أو من البدايات وصولًا إلى النهايات التي تقررها الذّات الكاتبة، «فإعادة ترتيب الماضي هي بلا مراء أهم ميّزات السّيرة الذّاتيّة بل وألصقها بها،» (ماي، ٢٠١٧: ٢٣٣)

وتتصف بـ»منطق القصّ» إذ تكون الأحداث المرويّة فيها محكمة التّرتيب، بسبب الفاصل الزّمني الكبير الذي أتاح للذّات الكاتبة تبيّن المعاني العميقة لبعض الحوادث في حياتها، وإدراك العلاقات الظاهرة والباطنة بين الأحداث التي عايشتها، ممّا مكّنها من التّرتيب، والتّوضيح، والاطمئنان إلى تشييد السّيرة الذّاتيّة على بناء محكم، ومتناسق.

أمّا اليوميات فهي استجابة للحاضر الذي تعيشه الذّات، وتتّسم بحركيّة الزّمن الحيّ والرّاهن، فتسجّل حدوث الأحداث مباشرة، أو بعد انقضائها بوقت قصيرة لا يتجاوز الساعات، والأساس فيها ألّا يأتي اليوم التالي، ولمّا تدوّن أحداث هذا اليوم، فهي فوضوية مبعثرة يمكن أن تتضمّنها كرّاسات ورقية، أو مجموعة من الأوراق المبعثرة هنا وهناك، وهي حين إعادة كتابتها ونشْرها قد لا تكون مرتبة، ومتعاقبة في أحداثها على نحو ثابت، فقد يفصل بين تاريخ اليوميّة والأُخرى التي تليها أيام عديدة، ويعترف بعض كاتبيها بهذا الأمر، يقول «أندريه جيد» في يوميته بتاريخ ١٨من فبراير ١٩٢٧: «لم أستطع أن أفي بالعهد الذي قطعته على نفسي، ولئن صُرِفت عن هذا الدفتر فما ذلك إلّا لأنَّ العمل قد شغلني،»(ماي، ٢٠١٧: ٢٣٣). فلا منطق للقصّ في اليوميّات، ولا صلة رابطة بين موضوعاتها المكتوبة.

ويمكن القول علاوة على الفروق التي ذكرها ماي، إنّ اليوميّات تسبق السّيرة الذّاتيّة في كتابتها، ويمكن أن تصبح عمادًا لمضامين السّيرة الذّاتيّة، التي تُجمع مادتها من الذّاكرة والمذكّرات واليوميّات، ولا يكون كاتب السّيرة الذّاتيّة حريصًا على إثبات التواريخ في مختلف أجزاء نصوصه، إلّا إذا استدعى الأمر ذِكره، كالإشارة إلى تاريخ مولده، أو تاريخ حدث بارز كان له أثر بالغ على مسار حياته، دون أن يكون هذا الأمر ملزمًا له طوال سيرته.

- التّداخل بين اليوميّات والمذكّرات:

اتخذت كثيرٌ من الإصدارات التي تنتمي لأدب الذّات في مسمّياتها كلمة (يوميات) دون أن تتسم بالخصائص البنائيّة التي تميّزها عن غيرها، ويعود هذا الأمر إلى الخلط الشائع لدى الكاتب والقارئ والنّاقد وغيرهم بين هذه الأنواع، على نحو ما نجد من استخدام أحمد زكريا الشلق مقرر اللجنة العلمية بمركز تاريخ مصر، وأستاذ التّاريخ الحديث المعاصر بكليّة الآداب جامعة عين شمس في تقديمه ودراسته لكتاب (الأيام الحمراء) مذكرات الشيخ عبد الوهاب النجار عن ثورة ١٩١٩، لمصطلحي «المذكّرات» و»اليوميات» في حديثه عن هذه المذكّرات إذ يقول: «وسنلاحظ أنّه بدأ نشر هذه اليوميات أو المذكّرات بصحيفة البلاغ في ٢٢/ مارس/ ١٩٣٣، وانتهى فيها في ٥ يونيو من نفس العام،»(النجار، ٢٠١٢: ١٠) ويعاقب في استخدام المصطلحين عند حديثه عن هذه المذكّرات، كأنّهما شيء واحد، فيقول: «لقد كشف شيخنا عن روحٍ وطنيّةٍ وثّابة، حين شارك في أحداث الثورة الوطنيّة، كما كشف عن حسّ تاريخيٍّ رشيد حين سجّل يومياتها - يوميّاته،»(النجار، ٢٠١٢: ١٤) ثم يسمّيها مذكّرات، فيقول: «وغني عن القول أنّ عنوان المذكّرات (الأيام الحمراء) قد اختاره الشيخ النّجار لها بنفسه، بعد أن رأى أنّه اسم صادق مسمّاه، ولفظ وافق معناه، فقد رأى تلك الأيام العصيبة التي منيت بها مصر، وبما سال في أنحائها من دماء الأبرياء من طلّاب الأزهر.» (النجار، ٢٠١٢: ١٠)

والقارئ لكتاب (يوميّات عبّاس محمود العقّاد) يجد نفسه بإزاء مذكّرات خطّها العقّاد خلال أكثر من عشر سنوات، ونشرت تحت عنوان اليوميات بصحيفة «الأخبار» اليوميّة، وتبدو حيطة كاتبها ماثلة في الإقرار ببعدها عن نوع «اليوميّات» فيقول: «ولا يفهم من عنوان اليوميات أنها بنت يومها، أو بنت ساعتها، إنّما يفهم منه أنّ مناسباتها العارضة قد تكون بنت يومها - بل بنت ساعتها ولحظتها - ولكنّها مجرد مناسبات عارضة للكلام في موضوع غير عارض، أو موقوت بزمن من الأزمان في معظم الأحيان،» (العقاد، د،ت: ١١) فاليوميّات والمذكّرات ذاتيّة انتقائيّة، وتلتقي المذكّرات المكتوبة وفق تسلسل الأيام، مع اليوميّات التي تقوم على تسجيل ما تتعرّض له الذّات في اليوم والليلة، لكنّها تختلف عن بعضها بعضا في جوانب عدّة، ففي المذكّرات تعنى الذّات الكاتبة بتسجيل ما يرتبط بها أو بغيرها، بينما تدوّن الذّات الكاتبة في اليوميات أحداثها المباشرة، ومشاعرها، وانفعالاتها تجاه الأحداث والأشخاص.

٣- السّيرة الذّاتيّة والرّسائل الشّخصيّة:

يشكّل أدب الرّسائل جنسًا أدبيًّا قائما بذاته، تنضوي تحته أنواع من الرّسائل المختلفة في أسلوبها وموضوعاتها، المتنوّعة في أغراضها ومقاصدها، والمتفاوتة في تأثيرها وجمالها، وتطّور هذا الأدب، وتراكمت قواعده ومعاييره وخصائصه، فهو «ذلك اللون الأدبيّ الذي يشمل جميع موضوعات الرّسائل النثرية الفنيّة المتبادلة بين النّاس،»(القيسي، ١٩٨٩: ٨٧) حتى غدت الرسالة صناعة ذات قواعد وأصول، لها مقتضيات خاصة في مقدماتها، ومضامينها، وخواتيمها.

ولقد تبلورت في الأدب الغربي نظريّة أدبيّة خاصة بهذا اللون الأدبي، فلقد استفاد أدب الرّسائل من علوم اللسان التي أمدت الباحثين بالمقولات الأساسيّة التي يمكن اعتمادها في تصنيف الخطابات عامّة، والخطابات الأدبيّة على وجه الخصوص، فمكّنت مقولة التّلفّظ نقّاد الرّسائل من استخدام أدوات تحليل الخطاب السّردي في دراسة الرّسائل السّرديّة، وبلورة مفهوم التّلفّظ الرّسائلي الذي يعطي نتائج حاسمة في مجال التمييز بين خطاب الرسالة، وسائر خطابات النثر الأدبي من جهة، وبين كاتب الرسالة بوصفه ذاتًا متلفّظة من ناحية، وطرفًا من أطراف التّواصل في عالم خطابي من ناحية أخرى، (رمضان، ٢٠٠٧: ٨) كما أسهمت نظريات الأجناس في تطوير الأبحاث المتّصلة بإنشائية الرّسائل، وإعطائها موقعًا معروفا من كتابات الذّات القريبة منها كاليوميّات والمذكّرات والسّيرة الذّاتيّة.

ولقد قسّم النّقّاد الرّسائل وفق موضوعاتها إلى أربعة هي: (رمضان، ٢٠٠٧: ٦٢- ٦٣)

أ- الرّسائل الديوانيّة: وأطلق عليها أيضا الرّسائل السياسيّة والسلطانيّة والرسميّة.

ب- الرّسائل الإخوانيّة: ومن مسمّياتها الرّسائل الاجتماعيّة، والمكاتبات، والمراجعات ، والرّسائل الشّخصيّة الخاصّة.

ج- الرّسائل الدينيّة، وقسّمت إلى رسائل وعظيّة وتربويّة وجدليّة.

د- الرّسائل الأدبيّة.

ومع هذه التقسيمات العديدة التي حظيت بها الرّسائل، والملاحظات المختلفة بشأنها التي تنتقد التّعثر المنهجي في تصنيفها ودراستها؛ فإنّنا نركّز الحديث من حيث الشكل والمضمون على النّوع الثالث من الرّسائل أعلاه، وهي الرّسائل الإخوانيّة.

فالإخوانيّة مصطلحٌ متنازعٌ بين التّحليل الاجتماعي، والتحليل الأدبيّ، استعمل للتعبير عن علاقة اجتماعيّةٍ حضريّةٍ، وتطوّر في خطاب النّقّاد للدّلالة على التّخاطب بين الشعراء، والكتّاب المتكافئين في المرتبة الأدبيّة، أو الاجتماعيّة، ولقد اشتملت هذه الرّسائل على أغراض المخاطبات الإخوانيّة الناظمة لمعاني الأخوة والصداقة والمحبّة، وضمّت في مراحل لاحقة التّهاني والتّعازي والملاطفة والتّهادي والاسترضاء والعتاب، والاعتذار والشكوى وغيرها من أغراض الحياة اليوميّة التي تتحوّل إلى أقوال وعادات وتقاليد قوليّة في المناسبات المختلفة، ومع تطوّر الحياة، وتطّور الأجناس الأدبيّة معها أخذت الرّسائل الإخوانيّة شكلا آخر عندما زادت فيها آثار تعبير الكاتب عن ذاته، وأصبحت متنفّسا لمشاعره وأحاسيسه المختلفة، وبدأ يكتب من خلالها ذاته في أحوالها المتقلّبة محوّلًا إياها من مراسلات إلى حركة أدبيّة، ووسيلة للتّعبير عن الذّات والكتابة عنها.

ويمكن أن تكون الرّسالة إلى طرف يُرجى ردّه، كما يمكن أن تكون رسالة من طرف واحد دون أن ينتظر كاتبها ردّا عليها، فيصبح مقام التّرسّل ذاتيًّا، ويكون "مولدا لإنشائية خاصة به بوصفه مقامًا أدبيًّا يتجاوز مفهوم التّرسّل بوصفه تلفّظًا عامًّا، أو ظاهرة اجتماعيّة وثقافيّة ابتدعها الإنسان، بحكم الحاجة إلى مجاوزة البعد في المكان،» (رمضان، ٢٠٠٧: ٢٢) فتنتفي منها سمة الحواريّة التي يحققها الردّ من الطرف المقابل، فالغاية من الرّسالة أن تدوّن الذّات مشاعرها، وأن تبسط أفكارها، وتكشف دواخلها، أو تسرد وقائع الحياة المختلفة التي تتصل بحياة كاتبها، فتتخذ سمة الشّخصيّة التي توصف بها؛ لأنّها خاصة بالذّات الكاتبة، التي تمثّل محورها، وموضوعها.

وتلتقي الرسالة الشّخصيّة مع السّيرة الذّاتيّة في «عدّة سمات أجناسيّة هي: تطابق المؤلّف والراوي والشّخصيّة الرّئيسة في السّرد الذّاتي، ومشاكلة الخبر للواقع في الرّسائل ذات الصّبغة التّاريخيّة». (رمضان، ٢٠٠٧: ٨) وأنّها تتخذ من قصّة حياة الذّات، أو بيان عواطفها موضوعها الأساسي، وتفترق الرّسائل عن السّيرة الذّاتيّة في جملة من الأمور، هي:

١. الرسالة «لا تساوي حكاية السّيرة الذّاتيّة، مهما تكن كثافة السّرد الذّاتي فيها،" (رمضان، ٢٠٠٧: ٢٥٠) فالحديث عن النّفس المبثوث فيها سرد متقطّع لا يؤلف سيرة ذاتيّة بالمعنى الاصطلاحي، رغم أنّ بعض مؤرخي الأدب يعدّونها مصدرًا من مصادر دراسة سِيَرِ الكتّاب، (رمضان، ٢٠٠٧: ٢٤٨) واعتمدها بعضهم للتّرجمة لشخصيّات تاريخيّة، على نحو ما نجد في إشارة محسن الكندي لرسائل عبدالله الطائي، وقوله عنها: «نظرا لخصوصيّة موضوع هذه الرّسائل لم نستطع الكشف عنه هنا، واكتفينا بإيراد طابعه، رغم فائدتها في الجانب التّوثيقي لحياته وعصره،»(الكندي، عبدالله الطائي ١٩٢٤- ١٩٧٣ وريادة الكتابة الأدبيّة الحديثة في عمان، ٢٠٠٩: ٤٠٤) وذهب بعضهم إلى أنّها من جنس السّيرة الذّاتيّة كقول الشاذلي بو يحيى عن رسائل ابن شهيد: «فهي متممة لما جاء في شعره، وفي تراجم الأدباء له من أخبار حياته، وتعريف بشخصيّته، ومن هذه الناحية فهذه الرّسائل ضرب من التّرجمة الذّاتيّة،» (الأندلسي، ١٩٩٣: ١٥٠) فلا يمكننا الاعتماد على الرّسائل في تجميع سيرة ذاتيّة متّصلة لصاحبها، قادرة على تصوير شخصيّته خارجها وداخلها بمكوّناتها المختلفة، بل تظلّ هذه الرّسائل مرتهنة بالمقام الذي استدعى مقالها، دون أن تتوسّع لتشمل موقفا حياتيًّا، يمكن الاطمئنان إلى أصالته ورسوخه واستمراره أو تبدّله لدى كاتبها، إضافة إلى استقاء معلومات حياتيّة موثوقة عنه.

٢. التّلفّظ الذّاتي المتقطّع في الرّسائل، لا يقارن بالتّلفّظ الذّاتي المعبّر عن سيرة الحياة بأكملها، أو جزء متّصل منها في السّيرة

الذّاتيّة، (ماي، ٢٠١٧: ١٥٦) فالتّحدث عن النّفس في الرّسائل ينزع إلى الاهتمام بسيرة الكاتب، لا إلى عدّه مقصدًا مستقلًا، أو قصّة متكاملة الفصول عن حياة الكاتب ومراحلها المختلفة.

٣. يكون الحديث عن النّفس في الرّسائل وفق رؤية زمنيّة قائمة على الحاضر الذي تعيشه الذّات، بينما تكون الرؤية في السّيرة الذّاتيّة قائمة على استرجاع الماضي، وتذكّره، وإعادة بنائه في خطاب أدبي.

٤. تقدّم السّيرة الذّاتيّة معلومات مباشرة، ومعطيات تاريخيّة تشير إلى سيرة حياتهم الحقيقيّة طالما ارتبطت بالعقد السّيرذاتي، وميثاقه الذي ينسب السّيرة لكاتبها، أمّا الرّسائل، فإنّها لا تقودنا إلى سيرة كاتبها بعيدًا عن إمكانات المقام التّراسلي، مثل: معرفة مناسبة الرسالة، والمرسل إليه، وتاريخها في بعض الأحيان، وفقد مثل هذه المعلومات لا يعكس سيرة كاتب الرسالة، ولا يمكّن من الربط بين المعلومات المختلفة لتكوين رواية متّسقة، ووثيقة عن تاريخ الشّخصيّة، رغم حديث النّفس المبثوث فيها.

وجاءت بعض الرّسائل متوافقة مع الخصائص الفنيّة التقليديّة المعروفة في التراث العربي قديمه وحديثه، ومن أمثلتها بعض رسائل عبدالله الطائي «الخاصة ذات الصّلة بالجوانب الاجتماعيّة والثّقافيّة والسياسيّة والتربويّة التي تؤكد عناصر التّواصل والعلاقات الإنسانيّة والحضور» (الكندي، ٢٠٠٤: ٤١٠) التي تعدّ نماذج للرسائل الإخوانيّة في الأدب العربي الحديث في الخليج، «وهي نتاج حركته، وعلاقاته، وأفكاره، بل سيرة حياته كاملة، وكأنّها دلائل وبراهين على فواصل حياته وأجزائها.» (الكندي، ٢٠٠٧: ٤١٠) واشتملت هذه الرّسائل على افتتاحيّات تعلي من قيمة الإخوّة مع المرسل إليه، على نحو ما نجد من عبارات مثل: "حضرة عزيزنا» و»الأخ الكريم الأستاذ» و»أستاذنا الجليل»، وتختتم الرّسائل بالدعاء، والشكر الجزيل، وتشتمل على التّاريخين الهجري والميلادي والتوقيع، وهي معبّرة عن شؤونه الخاصّة والعامّة، منطلقًا فيها على سجيّته دون تصنّع أو تأنّق متمثّلا الخصائص الأسلوبيّة السائدة في هذا النّوع من الرّسائل،

وغلب السّرد الذّاتي في هذه الرّسائل «فجسّدت سيرته الذّاتيّة بما فيها من وهج التّحوّلات، وبما تحمله من اضطرابات وفواصل هي نتاج حركته في الحياة.»)الكندي، ٢٠٠٧: ٤٣٣) إذ جاءت خلال مراحل متعددة من حياته، وتزامنت مع تنقله بين البلدان المتعددة، ومعاصرته للأحداث التّاريخيّة المختلفة «فهي ملأى بذكر ما تراءى للطّائي من أحداث اجتماعيّة وسياسيّة وثقافيّة،»(الكندي، عبدالله الطائي، وريادة الحركة الأدبية الحديثة في عمان، ٢٠٠٩:٤٣٣) فكانت سياقات تقدّم شهادات تاريخيّة تدوّن سيرته الاجتماعيّة والأدبيّة، وروايّة تاريخيّة تعبّر عن مواقف حقيقيّة اتخذها في حياته، وفي هذا الأمر تقترب الرسالة من السّيرة الذّاتيّة في احتفاظها بأجزاء من سيرة كاتبها، كما يظهر فيها اهتمامه بالقضايا العامّة التي شغلته على المستوى المحلّي أو المستوى العربي، فلقد حملت «ما اصطلح على تسميته بأدب الوقائع، والأحداث،» (الكندي، عبدالله الطائي، وريادة الحركة الأدبية الحديثة في عمان، ٢٠٠٩: ٤٣٣) وعن هذا الأمر يقول الكندي: "فقد حمل قضيّة بلاده في وطنه وهجره، ولقد وجدنا ذلك باديًا في رسائله لخاله أحمد بن سعيد أو محمد الشيبة السالمي، أو محمد أمين عبدالله أو سواهم ممن اشترك معهم في الهمّ الوطنيّ،" (الكندي، عبدالله الطائي، وريادة الحركة الأدبية الحديثة في عمان، ٢٠٠٩:٤٣٣).

كما ظهرت في الأدب العربي في الخليج رسائل لم تحافظ على الشكل الخارجي لأجناس الرّسائل، فلا نجد فيها من مقتضيات مقام الترسّل عناصر كالدعاء، ومناسبة الرسالة، أو العناصر التي تختم بها سائر الرّسائل، فالشكل الخارجي يفضي إلى الخواطر أكثر منه للرسائل، وتنفتح فيه الرسالة على السّرد الذّاتي، والتّحدث عن النّفس، فتبدو حوارًا من طرف واحد، غير مشروط برغبة في الرد، ومن أمثلة هذه الرّسائل ما نجده في كتاب (رسائل من الزّمن الجميل) لسعاد الصّباح، وهي رسائل دوّنت فيها مشاعرها، وعواطفها لأسرتها، اشتملت على رسائل لزوجها وأبنائها، دون أن نجد في بنية الرّسائل الشكليّة العناصر الخطابية المعتادة في الرّسائل التقليدية، فلا استفتاح فيها، ولا دعاء، كما أنّ الواضح أنّها رسائل من طرف واحد لا ترتجي عليها ردّا، تقول: «خطر ببالي هذه الليلة، أن أفتح رسائلي القديمة وأقرأها، لم أكن أعرف أنني ألعب بالنّار، وأنّني أفتح قبري بيدي،» (الصّباح، ٢٠٠٦: ٢١) فالسياقات التي تتحدث فيها الصّباح عن ذاتها هنا، ليست شهادات تاريخيّة تدوّن سيرتها الحياتيّة فحسب، بل هي سياقات يتحوّل فيها السّرد إلى تحقيق مقصد من المقاصد الأدبيّة والذّاتيّة في آن معًا، للتّعبير عن حالات شعوريّة خاصّة، ووصفها بأسلوب أدبيّ راق، دون أن تفصّل فيها القول كثيرًا، واقتصارها في تسخير مقوّمات التّلفّظ السّيرذاتي على الجانب النّفسي من شخصيّتها في علاقتها بأفراد أسرتها، دون الخوض في غيرها من الجوانب الحياتيّة الأُخَر، فحينا تكون الرسالة حبًّا لزوجها، فتقول: «يا من أسمّيه وطني، من كثرة ما أحبّك ألعن حبّك، ومن كثرة ما أنا مشتاقة إلى شمسك وبحرك، أريد أن أنشب أظافري في لحم الزّمن.» (الصّباح، ٢٠٠٦: ٥٧)

وتكون عتابًا حينا آخر: «يا حبيب الصيف والشتاء، ويا حبيب الخريف والربيع، لم أسمع بين رجال العالم عن رجل أقدر منك على استخراج الغضب من تحت أظافره، ولم أسمع في حياتي عن رجل أقدر منك على تحويل لحظات الفرح إلى نكد،» (الصّباح، ٢٠٠٦: ١٣٥) فهي خلجات نفس، وطاقة شعور لا تنحصر في المفهوم الاصطلاحي للرسالة الذي يسدّ حاجة اجتماعيّة، وليس له أي طموح أدبيّ، ولا تهدف منها إلى بيان الحال، والتّعريف بتاريخ الأحداث اليوميّة، والحديث عن الشؤون الخاصّة والعامّة، بل هي رسائل شخصيّة أدبيّة، تدوّن فيها خواطرها، وتنفّس فيها عمّا تجيش به دواخلها دون أن تنتظر ردّا أو جوابًا.

لقد اشتملت الرّسائل على الحديث عن النّفس بوصفه مقتضى أساسيًا من مقتضيات الرّسائل، ولكنّها لم تكن نماذج يقصد

منهـا الكاتـب إلى الرغبة في إطلاع القارئ على سـيرته الذّاتيّة، أو تقديم مرحلة من مراحله الحياتيّة، بل نقلت الرّسائل رؤية زمنيّة حاضرة، متعلّقة بالواقع الذي تعيشـه الذّات في ذلك الحين، ورغم أنّ الرّسـائل يمكن أن تكون جزءًا من تاريخ الذّات المتلفّظة، لكنّها لا تشتمل على هذا التّاريخ في مجمله.

٤- السّيرة الذّاتيّة وكتب الرحلات:

لقـد "درج الكتّاب العرب على اسـتخدام عبـارة "أدب الرحلات" للإشـارة إلى كتابـات الرّحالة المسـلمين وغيرهم التـي يصفون فيها البـلاد والأقـوام، ويذكرون فيهـا أيضا أحـداث تجوالهم، ودوافـع رحلاتهم،" (فهيم، ١٩٨٩: ١٣) فهو «أدب يدخل في درس الصورولوجيّة أي دراسـة صورة شعب من شـعب آخر، ويتتبع عادات وتقاليد وتأثيرات إقليمية.» (فهيم، ١٩٨٩: ٥)

ويقـوم أدب الرحلات على رصد مسـار الرّحلـة ووصفه، ومدّ القـارئ بمشـاهد ووقائـع وحكايـات وخلاصة تجـارب من محطّات الرّحلة التي تسـتوعب سـنين ممتدة من العمر، إلى أن تصل إلى منتهاها بأسـلوب أدبي شـائق يغري القارئ، فيسجّل الرّحالـة انطباعاته تجاه ما يراه ويعايشـه ويقرؤه عن ملامح البلـد، فيصف مظاهـره الحضريّة المختلفة التي تشـدّ الانتباه، ويـدوّن ما يتعلّـق بخصائصه الجغرافيّـة والبيئيّة والحضاريّة والمعيشيّة، وخلفيته السياسية والثقافية والإجتماعية، وأحوال مجتمعه من عادات النّاس وتقاليدهم، وملابسـهم وأطعمتهم، وطقوسـهم في المناسبات المختلفة، ويعبّر فيه عن مشاعره التي تختلج في نفسـه، والأحداث التي يعايشـها، والمواقف التي تأثر بهـا، والهموم التي عانى منها في ذلك البلد طالت أم قصرت مدة إقامته فيه، فيرصد الجوانب السلبية والإيجابية للأماكن والبشر في البلاد التي زارها، فهو سـبر لما له علاقة بالمكان والإنسان في بقعة جغرافيّة ما.

ومثلما مثّلت الرحلة موضوعًا وحيدًا وأساسيًّا في كتب الرّحلات، فقد وظّفها كاتبو السّيرة الذّاتيّة في سيرهم المختلفة، وأدرجوها إدراجًا محكمًا في نسـيجها، فحفلت في أجزاء منها بالحديث عن الرّحـلات، التي كانت لدى بعضهم جـزءًا من التّجربة الحياتيّة التي عايشـوها، فتضمّنت مشـاهداتهم التي تركـت آثارها في نفوسهم.

يقـول عمـاد الدين خليـل في كتابه (مـن أدب الرّحـلات): «أدب الرّحلات كالسّيرة الذّاتيّة، شحيحٌ هو الآخر في مكتبتنا الإسلامية، رغـم أنّ أجدادنا قدّموا فيه الكثير.» (خليل، ٢٠٠٥: ٢٠) ومقارنة كهذه تفتح السؤال حول وجه الشّبه الذي اعتمده الكاتب بين أدب الرّحلات، والسّيرة الذّاتيّة غير الندرة التي صاحبت النتاج الكتّابي في هذين الأدبـين، فالثابت أنّ الكتابة السّـيرذاتيّة قابلة، ومؤهلة للتّفاعل مع الأنواع الكتابيّة ذات الصّلة بالكتابة التّاريخيّة، ومنها أدب الرّحـلات، وهو ما يقودنا إلى تلمّـس الجوانب التي يقتربان فيها مـن بعضهما، مما يمكن أن يوجد تداخـلاً ظاهرًا يؤدي إلى عدم التفريق بينهما أحيانا، ويمكن القول أنّ السّيرة الذّاتيّة وأدب الرّحلات تجتمعان في جوانب عدّة، هي:

١- كثافة الخطاب المرجعي، وخفوت درجة التّخييل:

يلتقـي أدب الرّحـلات مع السّـيرة الذّاتيّـة في اعتمادهما الواقع أساسًـا، ومادة موضوعيّة لهما، إذ تشكّل رحلات الواقع أساس أدب الرّحـلات، يسـتقي الكاتب من المشـاهد الحيـة، والتّصوير المبـاشر، المعلومـات والحقائـق، ممـا يجعله من أهـم المصادر الجغرافية والتّاريخيّة والاجتماعيّة المعتمد عليها في دراسة البلدان وتاريخها.

ويمثل التّاريخ الشـخصي للـذّات جوهر السّـيرة الذّاتيّة، فالذّات والواقع المرجعي مادة السّرد الاسـتعاديّ فيهـا، وهو يقوم على الأحـداث المرجعيّة التي عايشـتها الـذّات في مراحلهـا المختلفة، وتستلزم مرجعيّة الملفوظ السّيرذاتيّ الركون إلى حقيقة الأحداث، والشّخصيّات التي تتضمّنها السّيرة الذّاتيّة.

ويبتعـد أدب الرحلات والسّـيرة الذّاتيّة عـن التّخييل الذي يفضي إلى إلحاق الشـكّ، وتفريغهما من المعلومـات المرجعيّة، التي تمثّل عماد المادة الموضوعيّة التي يقبل عليها القارئ ويتقبّلها بوصفها المتحقق في الحياة، وبمطابقتها للحقيقة التّاريخيّة للذات والمكان، ولا يقبـل توظيـف الخيال إلّا بمـا يعين على الربط بـين الأفكار المختلفة، وسـبك العبارات وصياغتها بأسـلوب أدبـيّ، قادر على تحقيق إنسيابيّة السّرد، وجماليّة التّعبير، أو وصف المكان، وابتداع مشابهاتٍ، تحرِّره من صورته الحقيقيّة؛ لتخلع عليه أوصافًا تتفق والحالة الوجدانيّة للكاتب.

٢- التّعبير عن الذّات، والآراء الشّخصيّة:

يهتـم السّرد الاسـتعادي في الكتابـة الرحليّة التـي تتقصّد الآخر باسـترجاع ذكريـات الـذّات في مراقبتهـا الجماعة، وسـلوكها المختلـف في الأحـوال المتعددة، فيقدّم الرّحالـة خلاصة تجاربه في البلدان، ومكتسـباته المعرفيّة والنّفسـيّة بالحياة والإنسـان من خلال بلورة انطباعاته الشّـخصيّة، أو إصداره أحكاما تقويمية لما شـاهده أو سمعه، وصوغه صورة واحدة لـ«الأنا» والموصوف، في حركةً نسـقيَّةً تُعلي مكانتهما معًا، وتؤسِّس مبدأ اشتراكٍ بينهما، فيغـدو أدب الرّحـلات زاخرًا بـالآراء الذّاتيّة المعـبّرة عن قناعات الذّات، وأفكارها الخاصة التـي اعتنقتها خلال رحلاتها المختلفة، وواصفـة في بعض الأحيان للهمّ الجماعي الـذي ترصده الذّات في المكان والزمان.

وفي السّيرة الذّاتيّة فإن الكتابة عن الذّات فعل ينهض على استعادة حياة الإنسان، وتحليلها، وتفسيرها في نتاج سيرذاتي هو حصيلة امتزاج نوعين مـن الكتابة: التّدوين التّاريخـي، والحكاية الفنية لتقديم رؤيتها للحياة، وخلاصة تجاربها، وقناعاتها التي اكتسبتها في خلال مسـيرتها الحياتيّة الخصبة، فتقـدّم الذّات الحكم والعبر التي استفادتها من المواقف المختلفة التي مرّت بها، وهي تحرص على تأكيدها، والتّعبير عنها، ورغم أنّ كلّ عمل سـيرذاتي غالبا ما يصرّح كاتبه أنّه يهدف فيه إلى جلاء ذاته، ورواية قصّته، فينصب الـسّرد فيه على الذّات، ويحتفي بالفرديّة، إلّا أنّه أحيانا يتجاوزها إلى الذّات الجماعيّة وهمومهـا ومعاناتها في الزمان والمكان، وهو أمر ثابت أيضًا في أدب الرّحلات.

٣- الاعتماد على الذّاكرة، واسترجاع الماضي:

يتأسس الخطاب في أدب الرّحلات على سرد الذّكريات، وأنشطة الرّحالة وانتقاله بين الأماكن المختلفة، ويحرص بعضهم على استدعاء الأحداث والوقائع مرتّبة ترتيبًا تعاقبيًّا تبعا للسنين التي قضاها في البلاد التي يصفها، وتستوعب الرّحلة غالبًا عددا كبيرًا من السنوات التي يعيشها الرّحالة في المكان الواحد، أو يقضيه متنقلًا من مكان إلى آخر.

وتكتب السّيرة الذّاتيّة بعد أن يكون قد انقضى من الحياة شطرٌ كبير، فتروي الذّات الكاتبة في سنوات لاحقة، عن ذات المؤلّف في سنوات سابقة، فيسجل الماضي المستعاد، ويستعين بالذّاكرة، وما وقر فيها من أحداث ومشاهدات، فليست كلّ الأحداث التي تمرّ بها الذّات مرشّحة للذكرى، إذ تنتقي الذّاكرة البارزة منها، أو تلك التي ارتبطت بنتائج لاحقة، أو رسخت لسبب أو لآخر فيها، وهو ما يمثّل ملمحًا أساسيًّا لكل كتابة سيرذاتيّة.

والاعتماد على الذّاكرة يجعل موضع الاهتمام لا يتعلق بالحدث التّاريخي، وإنّما يرتبط بصورة أكبر بالذّكرى التي بقيت منه، والمشاعر التي ولّدها في النّفس، وهي ذكرى يمكن أن يشوبها الخطأ والتّشويه؛ لأنّ الكتابة التّاريخيّة المعتمدة على الذّاكرة عرضة للانحرافات والأوهام، مما يفرض الاستعانة بمساعدات الذّاكرة مثل: التدوين المستمر، والوثائق، والصّور وغيرها مما يعين على استذكار الأحداث الماضيّة بصورة أقرب إلى ما كانت عليه حين حدوثها، إذ تكتسب الوثيقة حينها إقناعًا يفوق قيمة الذكريات الخاصة التي يمكن أن يطولها التبديل نظرًا لمرور الزّمن عليها، وتعرّضها للتّغيير مرة بعد أخرى.

إنّ ما يجمع بين أدب الرّحلات والسّيرة الذّاتيّة هي قيمتهما الإنسانيّة في تقديم شهادات تاريخيّة ذات بعد أدبيّ وجمالي، فالذّات الإنسانيّة موضوع القصّ في السّيرة الذّاتيّة جزء لا يتجزأ من الذّات الإنسانيّة الموصوفة في أدب الرّحلات، وفي كليهما تكشف الذّات عن نفسها، وتدعو القارئ للتّصديق بحقيقة تجربتها الذّاتيّة التي اكتسبتها من رحلة الحياة، أو من التّجوال في البلاد المختلفة، وهو أمر يهمّها كما يهمّ القارئ الذي يطمح من خلالها إلى الاقتراب من هذه التجارب، والتّماهي مع أحداثها لصدقها، وحقيقتها كما ينبغي لها أن تكون، إلّا أنّ هناك العديد من الجوانب التي يفترق فيها أدب الرّحلات عن السّيرة الذّاتيّة، هي:

أ- اعتماد أدب الرّحلات على المكوّن التّاريخي والجغرافي والاجتماعي، والنزوع إلى الآخر:

تختلف الرحلة عن سائر التجارب الشّخصيّة أنّها تستجيب للذّة الجديد والغريب، وتجربة الغربة، واكتشاف الأماكن الجديدة من النواحي البيئيّة، والجغرافيّة، وملاحظة الإنسان في أبعاده المختلفة، البيوفيزيائية والاجتماعيّة والثّقافيّة، فحاجة الذّات ورغبتها لا تتعلّق بالحديث عن نفسها، بل بسرد الأخبار، والأسرار، ومحاولة الإدهاش فيما تلتقطه الذّات من مشاهد مثيرة، وغريبة أحيانًا عن المكان وأهله.

وتمثّل المعلومات التّاريخيّة بمختلف مظاهرها السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصادية والثّقافيّة في الرحلات مكوّنًا أساسيًّا لاستجلاء الواقع، إذ تقدّم الرحلة صورة جليّة نابضة بطبيعة العصر، والظروف التّاريخيّة التي عاشها الرحالة.

وتعد البيانات الجغرافيّة من وصف الممالك والبلدان والأصقاع والأقاليم والمدن والمسالك، والبيئيّة من تعيين للطبيعة والمناخ وظاهرات توزيع السكان وغير ذلك سجلًا حقيقيًا لمختلف مظاهر الحياة في مجتمع بعينه، ومرحلة تاريخيّة محددة.

ويحوي أدب الرحلات النماذج الأدبيّة من القصة والرواية والشعر والسّيرة الذّاتيّة، كما يحتوي على المعلومات القيمة والنادرة في العلوم الأُخَر، ومهما برزت الذّات الكاتبة بمشاعرها، وآرائها، إلّا أنّ الاحتفاء بالمكان والآخر تبعده عن مجال السّيرة الذّاتيّة، التي تظلّ فيها الذّات وحدها هي محور الكتابة، حتى وإن التحمت وامتزجت بالجماعة في بعض ذكرياتها.

ب- السّيرة الذّاتيّة أعمّ وأشمل من كتب الرّحلات:

الكتابة عن الحياة متّسعة اتساع الحياة نفسها، وازدحامها بالأحداث المتتالية، والوقائع المتعددة، ومتشابكة في علاقتها مع الشّخصيّات المختلفة، وبينما يعزب بعض مؤلفي السّير الذّاتيّة عن تضمينها ما يعرض لهم من أحداث حيواتهم، ويكتفون بالبارز منها، والداعي إلى الفخر والذكر، يستسلم بعضهم إلى تداعي الأفكار، ويميل إلى الانسياق للاستطراد، وترك النّفس على سجّيتها في تدوينها قصّة حياتها، ويعدّ ما يتّصل به من شؤون حياته حدثًا قابلًا للتسجيل، ومدعاة إلى بسط الحديث عنه لتوثيقه، وتدوينه، يقول روسّو في اعترافاته: «إنني لأعلم أن ليس للقارئ كبير حاجة لمعرفة هذا كلّه، ولكني أنا بحاجة إلى أن أحدثه بذلك.» (ماي، ٢٠١٧: ٨٢) فالكتابة تتيح للذّات الكاتبة مسارات عديدة للذكرى، وتحليل الموقف، بعد هدوء الانفعالات التي كانت تسيطر على الإنسان حين حدوثها، ووصف المشاعر، وتقييم الحياة بعد انقضاء أزمنة عليها، واستخلاص العبر والحكم منها.

ويورد كاتب السّيرة الذّاتيّة مقاطع من قصص رحلاته، وتفرد لها صفحات للإحاطة بها، رغبة في إحياء ذكريات الماضي، لتصوير الانفعالات التي اعتملت في الذّات الكاتبة، والمشاعر التي انتابتها حيال مشاهداتها في تلك الرّحلات، عند الحديث عن جماليتها، أو تصوير المعاناة والشدائد التي قاستها إزاء ترحالها في الأماكن المختلفة، فالعودة إلى الماضي يمكنها أن تبعث الحزن والأسى في النّفس، تمامًا مثلما يمكنها أن تثير الفرح والسرور.

ولا تستوعب الرّحلة إلّا مرحلة من مراحل الإنسان الحياتيّة، وهو غير قادر على القيام بها إلّا في مرحلة متأخرة من عمره في شبابه، أو بعدها بقليل، فتشتمل الرّحلة سنينًا معدودة من الحياة الكليّة للإنسان، ولا تمثّل إلّا جانبًا من جوانبها، فالرحلة وإن طال زمانها، لابد وأن تنتهي، ويعود الإنسان إلى أهله، ومكانه الأصلي؛ ليعيد روايتها، ويكتب أحداثها من الذّاكرة، استنادًا إلى ما احتفظ به من مذكّرات، ووثائق، وصور، ومهما برزت الذّات

الكاتبة بمشـــاعرها، وآرائها، إلّا أنّ الاحتفاء بالمكان والآخر تبعده عن مجال السّيرة الذّاتيّة التي تظلّ فيها الذّات موضع التبئير.
وتبقى السّيرة الذّاتيّة التي يكتب فيها الإنسان القصة شبه الكاملة لحياته أوسع في زمنها، وأكثر ازدحامًا بالأحداث والوقائع، وأقدر على اســتيعاب مراحل حياة الإنســان من بدايــة حكايته، وحتى لحظــة الكتابة، ويظلّ لها في نفس صاحبها منزلة لا تضاهى فهي «في أغلب الحالات ليســت فقط عصارة سن النضج أو الشيخوخة، بــل إنّ مؤلفيها قد دأبوا عــلى عدّها أعظــم مؤلفاتهم، إذ تحوي السّــيرة الذّاتيّة بين دفتيها ما ســبقها وتفسره وتســوغه، وهي إلى ذلك تتويج للأعمال أو للحيــاة التي قدحت شراراتها.»(المرجع نفســه، ص٥٧) تستوعب في متنها المذكّرات واليوميّات والرحلات والرّســائل والوثائق والصّــور التي تحتفظ بها الذّات في ســعيها لتقديم صورة كلّية لمســيرتها، وتحقيق رواية تتصف بالمصداقيّة والمنطقيّة والاتســاق، فتغدو هذه الكتابات جميعها جزءًا يســيرًا من القصّــة المرويّة، وصورة مجتزأة من اللوحــة الكاملة للحياة التي تصوّرها،

الخاتمة والتوصيات:

إنّ السّيرة الذّاتيّة «ليست هي تلك التي يكتبها صاحبها على شكل مذكــرات يعنى فيها بتصوير الأحداث التّاريخيّة، أكثر من عنايته بتصوير واقعه الذّاتي، وليست هي التي تكتب على صورة ذكريات يعنى فيهــا صاحبها بتصوير البيئة والمجتمع والمشــاهدات أكثر من عنايته بتصوير ذاته، وليست هي المكتوبة على شكل يوميات تبــدو فيها الأحداث على نحو متقطّع غير رتيب، وليســت في آخر الأمر اعترافات يخرج فيها صاحبها على نهج الاعتراف الصحيح، وليســت هــي الرواية الفنيّة التــي تعتمد في أحداثهــا ومواقفها على الحياة الخاصة لكاتبها، فكلّ هذه الأشــكال فيها ملامح من الترجمــة الذّاتيّة، وليســت هي لأنّها تفتقر إلى كثير من الأســس الفنيّــة التي تعتمد عليها، بل تمثّل السّــيرة الذّاتيّة مصدرًا أصيلًا لهذه الأنواع الأدبيّة جميعها، من حيث الموضوع والتقنيّات، تمنح كلّ نوع منها ســمة بعينهــا، ولا تأخذ منه، ويعزز القول بأصالة السّيرة الذّاتيّة جملة من الأســباب التّاريخيّة والموضوعيّة، وهي مجال لإعادة البحث والاشــتغال على السّــيرة الذّاتيّــة بعيدًا عن هالــة التّأثير والتّأثّر التي تقترن بهــا، في علاقتها بالأنواع الأدبيّة الأُخَر، إذ ينبغي النّظر إلى السّيرة الذّاتيّة نظرة فلسفيّة، وتاريخيّة بوصفها قصة حياة الإنســان على امتداد وجوده في الأرض، فكلّ قصّة منها هي ســيرة ذاتيّة مثّلت دون شك أساسًا، وموضوعًا في نوع كتابــي ما، ماثلت فيه الواقع مماثلة تامّة، أو تتبّعت خطاه، وأحالت إليه دون أن تشــابهه على الوجــه الأكمل، ولقد خلصت الدّراسة إلى النتائج الآتية:

١. السّــيرة الذّاتيّة كلٌّ جامــع، وهي نوع ينفتــح على مجالات أخرى، مثل: التحليل النّفسي، وعلم النّفس، والسوسيولوجيا، والتّاريــخ، والأنثروبولوجيــا، وعلم الاجتماع، والسياســة وغيرهــا، ويمكــن الإفــادة منهــا في جوانــب تاريخيّــة وفيســيولوجية عــدّة، يجعل منها منهــلاً للعديد من الأنواع الأدبيّة الأُخَر التي تجد ضالتها فيها؛ لتسدّ الثّغرات المعلوماتيّة المختلفــة التي تحتاجها في أعمالهــا الأدبيّة المختلفة، ولطالما مثّلت السّير الذّاتيّة مراجع تاريخيّة معتمدة لتّوثيق الأحداث، والشّخصيّات، ومكّنت الآخرين من تقديم أعمال أدبيّة تمثلت في الرّوايــات، والمذكّرات، وغيرها، أو فنيّة مثل: المسلســلات التلفزيونيّة، والأفلام السينمائية.

٢. النّصّ المرجعي في السّــيرة الذّاتيّــة، وغيرها من أنواع كتابات الذّات الأُخَر، جعل التّداخل بين هذه الأنواع معقّدا ومتشابكا.

٣. تفــترق المذكرات عن السّــيرة الذّاتيّــة في اهتمامها بالأحداث حول الكاتب وخارجه أكثر مما تولي للكاتب نفســه، فتسلّط الضوء على الآخر أكثر من الذّات الكاتبة.

٤. تنقســم اليوميات إلى أربعة أنواع هــي: اليوميات التوثيقيّة، واليوميــات التوثيقية الانطباعية، ويوميات الأنا، واليوميّات السّيريّة التي تقترب من السّيرة الذّاتيّة.

٥. السّرد الذّاتي في الرّسالة أقل كثافة من السّيرة الذّاتيّة.

٦. اشــتملت الرّســائل على الحديث عن النّفس بوصفه مقتضى أساسيًا من مقتضيات الرّسائل، ولكنّها لم تكن نماذج يقصد منهــا الكاتب إطلاع القارئ على ســيرته الذّاتيّــة، أو تقديم مرحلة من مراحله الحياتيّة.

٧. مــا يجمع بين أدب الرّحلات والسّــيرة الذّاتيّــة هي قيمتهما الإنسانيّة في تقديم شــهادات تاريخيّة ذات بعد أدبيّ وجمالي للمكان والبشر.

٨. السّيرة الذّاتيّة أعمّ وأشمل من كتب الرّحلات.

المراجع

بافيزي، تشــيزاري، ٢٠١٦، مهنة العيش – يوميات ١٩٣٥-١٩٥٠، ترجمة: عباس المفرجي، دار المدى، بغداد،

جبّور، عبد النور، ١٩٨٤، المعجم الأدبي، لبنان دار العلم للملايين.

خليــل، عماد الدين، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥، مــن أدب الرّحلات، دار ابن كثير.

رمضــان، صالح، ٢٠٠٧، الرّســائل الأدبيّة ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعريّة)، بيروت دار الفارابي.

زيتونــي، لطيف، ٢٠٠٢، معجــم مصطلحات نقد الرواية، عربي-إنجليزي، فرنسي، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون.

ســعداوي، نوال، ٢٠٠٠، مذكراتي في ســجن النســاء، بيروت دار الآداب.

شرف، عبد العزيز،١٩٩٢، أدب السّيرة الذّاتيّة، مصر، مكتبة لبنان.

ابن شــهيد الأندلسي، ١٩٩٣، تونس، مؤسســات عبــد الكريم بن عبدالله.

الصّباح، ســعاد، ٢٠٠٦، رســائل من الزمن الجميل، الكويت، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع.

الطائـي، عزيـزة، ٢٠١٥، الخطـاب السّردي العمانـيّ (الأنواع – الخصائـص) ١٩٣٩ –٢٠١٠، أطروحـة دكتـوراه، تونس جامعة تونس.

عبد العال، محمد، ١٩٩٦، في النثر العربي، قضايا وفنون ونصوص، مكتبة لبنان، بيروت.

عبـد الملك، بـدر، ٢٠٠١، أبوظبي (ذاكرة مدينـة) ١٩٦٨ – ١٩٧٠، أبوظبي، اتحاد كتّاب الإمارات.

العقـاد، عبّـاس، د،ت، يوميّات عبـاس محمود العقّـأد، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي.

فهيم، حسـين محمد، ١٩٨٩، أدب الرّحـلات، عالم المعرفة، ١٣٨، يونيو.

القاضي، محمـد وآخرون، ٢٠١٠، معجم السرديـات، تونس، دار محمد علي للنشر.

القيـسي، فايز، ١٤٠٩ – ١٩٨٩، أدب الرّسـائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، الأردن، دار البشير.

الكندي، محسـن، ٢٠٠٩، عبدالله الطائي وريـادة الكتابة الأدبيّة الحديثـة في عمـان ١٩٢٤ - ١٩٧٣، الأردن، دار الجنادريّـة للنشر والتوزيع.

الكندي، محسن، ٢٠٠٤، عبدالله الطائي حياة ووثائق (١٩٢٤هـ - ١٩٧٣)، الكويت، رابطة الأدباء الكويتيين.

كنفاني، غسّـان: ٢٠١٨، صفحـات مختارة من دفـتر اليوميات ١٩٦٠-١٩٦٥، تقديم: صبحي حديدي، حيفا، دار راية للنشر.

مـاي، جـورج، ٢٠١٧، السّـيرة الذّاتيّة، تعريـب: محمد القاضي، عبدالله صولة، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع.

المسـدّي، عبد السّـلام، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦، النقد والحداثة، بيروت، دار الطليعة.

النّجار، عبد الوهاب، ٢٠١٠، الأيام الحمراء، مذكرات الشـيخ عبد الوهـاب النّجار عن ثـورة ١٩١٩، إشراف ودراسـة: أحمد زكريّا الشّـلق، إعداد وتحقيـق: مصطفى الغريب محمـد، القاهرة، دار الكتب والوثائق القوميّة.

هواري، عبد العاطي، ٢٠٠٨، لغة التهميش (سيرة الذّات المهمّشة)، حكومة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، إصدارات دائرة الثقافة والإعلام.

يعقوب، إيميـل بديع وعاصي، ميشـال، ١٩٨٧، المعجم المفصّل في الأدب، لبنان، دار العلم للملايين.